الرمز في الخطاب الأدبي
رو إبحار عكس النيل اختياراً

د. ضياء غني العبودي – جامعة ذي قار – العراق

الملخص:

يحتل الرمز أهمية كبيرة في الأدب الروائي، كونه يساهم في خلق دلالات جديدة تهدف إلى أثراء العمل الروائي ، وإثارة المتعة في نفوس القراء، من خلال الفضول الذي تخلقه في داخلهم حول دلالته ، وإشارته إلى أفعل الشخصيات والحوارات داخل العمل .

وقد ظهرت الرموز بشكل جلي في رواية "إبحار عكس النيل : للكاتبة العراقية فائزة العزي ، لذا حاولت الإجابة على سؤال مفاده: ما هي الرموز التي تحيل إليها هذه الرواية ؟ متتبعاً هذه الرموز من لوحة الغلاف والعنوان إلى نهاية متن الرواية. ساعيا إلى إظهار العلامات التي ترتبط برموز تشير إلى الإبعاد الثقافية والاجتماعية في محيط الرواية. السودان.

Abstract

Occupying a figure of great importance in fiction, as contributing to the creation of new semantics designed to enrich the fictional work, fun and excitement in the hearts of readers, through curiosity they create in their minds about the significance, and I do Referring to the characters and dialogues within the work.

Icons clearly has appeared in the novel "Sailing reverse the Nile: Iraqi writer Faiza al-Izzi, so I tried to answer the question that: What are the symbols that refer to this novel? Retracing these icons of the cover plate and the title to the end of the board of the novel. Seeking to show signs that It is associated with symbols refer to the cultural and social dimensions in the vicinity of the novel Sudan.

المقدمة :

من المعروف أن الرمز الفني له محددات جمالية ثلاثة، وهي:

الأولى: ((أن الرمز يبدأ من الواقع ليتجاوزه ليصبح أكثر صفاء وتجريداً ، ولا يتخلق هذا المستوى التجريدي إلا بتنقية الرمز من تخوم المادة وتفصيلاتها.

الثانية : أن الرمز ليس تحليلاً للواقع بل هو تكثيف له وفي هذا ما يربطه بالأحلام من حيث ميل كليهما إلى الإدماج بحذف بعض الأجزاء المرموزه أو الاكتفاء من مركباتها بجزء واحد فقط، أو الإيماء بالصورة المركبة إلى عناصر ذات سمات مشتركة ولعل هذا الكثيف هو وراء ما في الرمز من غموض تتعدد فيه مستويات التأويل.

الثالثة : أن الرمز من خصائص الأسلوب وليس من خصائص الكلمات ، أي هو قيمة سياقية تركيبية وليس قيمة إفرادية))(1) لذا نلحظ أنَّ الكاتبة كثيرا ما انطلقت من الواقع السوداني إلا أنها لم تنته بالواقع بل حلقت في فضاء الدلالة الرمزية .

رمزية العنوان ولوحة الغلاف:

العنوان :

تشكل العنونة بابا مهما من أبواب الدراسات النقدية الحديثة التي طرقها النقاد بأطراف أقلامهم فتنبه إليها أصحاب النصوص الأدبية، فأصبحت في نصوصهم فنا وصناعة بعد أن كان العنوان لا يعطى تلك الأهمية من قبل منشئ هذه النصوص من جهة ومن النقاد من جهة أخرى، فصار لا يقل أهمية من النص نفسه((بوصفه المدخل أو العتبة التي يجري التفاوض عليها لكشف مخبوءات النص الذي يتقدمه ذلك العنوان))(2)

وقد أصبح نتيجة لذلك بمثابة البوابة الأولى التي تضيء للناقد طريقه في سبيل الدخول إلى عالم النص والتعرف على زواياه الغامضة، فهو مفتاح تقني يجس به نبض النص وتجاعيده، وترسباته البنيوية وتضاريسه التركيبية على المستويين الدلالي والرمزي(3) .

وإذا يمارس العنوان فعله السابق في إضاءة النص والكشف عن روحه كعتبة أولية ومفتاحا ناجحا في فهم أولي للنصوص التي يتبوأ عليها، فهو من جانب آخر يمارس فعل الإغواء والتعيين والوصف [4]. واختصار النص الذي يتقدمه عن طريق الاقتصاد اللغوي الذي يتمتع به، فنحن عندما نقرأ عنوانا يتكون من لفظة أو لفظتين فأنه بهذه الخاصية والميزة يستطيع أن يصف أو يختصر لنا الطريق إلى ذلك النص ، وتحديده من الضياع وعدم التحديد في ذهن المتلقي.

يمكن وصف العنوان بالاقتصاد اللغوي أو التكثيف المعنوي , فأول ما يستقبل القارئ العنوان وهذه الصفة على قدر كبير من الأهمية ؛ إذ إنها في المقابل ستفترض أعلى فعالية تلقٍّ ممكنة إذ إنَّ حركة الذات أكثر انطلاقًا وأشد حرية في انتقالها من العنوان إلى العالم , والعنوان للكتاب كالاسم للشيء , أو هو أشبه بالبيضة المخصبة التي ستلد فيما بعد جنينها الذي لا ينسلخ عنها ـ أعني النص ـ والذي يرتبط بمصدره العنوان بعلاقات لغوية بايلوجية وتناصية , وكأن النص في تكوينه ينطوي ويبرز فيه أنطولوجية العنوان , ولكل أديب وهو يضع عنوانًا لمتنه الأدبي يمارس مجموعة من الوظائف الفكرية والجمالية والإيصالية , فهو يحاور نصه , يؤول مقاصده الكلية , ثم يحولها إلى بنية مختزلة ومختصرة ، عبر التركيب وإعادة التركيب من منظور ثيماتي وجمالي , لصياغة عنوان مطابق أو شبه مطابق للمحتوى النصي , أو مراوغ لدى الباحثين عن جمالية التنافر والتمويه [5] .

قد شكَّل العنوان ((إبحار عكس النيل)) دلالة سيميائية مصغرة لمحتوى الرواية ، فهو يشد القارئ نحو دلالات يحاول أن يعرف سر مكنوناتها ،فمن حيث المعجم اللغوي الذي تشكل منه العنوان نلحظ انتماء لفظ الإبحار إلى التنقل والترحال ، الذي يحمل الذاكرة إلى المخاطر والمجهول حيث الفضاء الواسع للمياه التي تحمل في إبعادها إيقونة مزدوجة ذات بعدين ، الأول الهدوء والسكينة الثاني المخاطرة والصخب ،إما لفظ (عكس) فإنها تشير إلى القلب والخروج عن العرف ، ولنا أن نرى هذا العنوان في ثلاث حقائق:

أ . النيل في الواقع النهر الوحيد في العالم الذي يجري من الجنوب باتجاه الشمال .

ب . الرواية حملت عنواناً مغايراً للواقع الجغرافي .

ج ـ نص الرواية يحمل في طياته ما يخالف العنوان على لسان بطلة الرواية (كرهت الإبحار عكس النيل)[6] ليعيد القارئ إلى الوضع الأول. وهو ما ترمز إليه الرواية من خلال علاقة الجنوب بالشمال.

إن تركيب العنوان يحتمل ثلاثة أوجه :

1. يمثل المبتدأ الوجه الأول لها بتقدير (هذا إبحار عكس النيل) هو يحمل الإظهار للأحداث والمضامين.

2- وقد يكون الحذف لفعلي الاختصاص (أعني ، أخص إبحار عكس النيل) لتكون الدلالة تأكيداً على هذا الإبحار ، إي الإبحار من غير عودة أو الإبحار مرغما من دون التمهل أو التروي .

3. لعل الحذف يرتبط بالضمير المحلق بلفظة (إبحار) ليكون تقدير الكلام (إبحارنا عكس النيل) تحمل دلالة رحلة عائلة (لوشيّا) من شمال إلى الجنوب .

لوحة الغلاف :

لقد أدرك العرب منذ القدم العلاقة بين الرسم والكلام فهذا الجاحظ يرى في تعريفه للشعر على انه ((ضرب من النسج وجنس من التصوير)) [7] ، وما كان من الشاعر العربي قديما إلا أن ينقل ما يراه وكأنه يرسمه أمام المتلقي، فكان التشبيه الذي رآه رسما للشيء من الفنون التي نالت الاهتمام لدى الشعراء والنقاد وعقدوا له بابا واسعا في علم البيان يحدد معناه ، ويذكر أركانه ويبين فنونه حتى قيل عنه بأنه ((صفة الشيء بما قاربه وشاكله ، من جهة واحدة أو جهات كثير))(8) ، فجاءت القدرة على إجادته مجالا لتقديم الشاعر على بقية الشعراء ، وكأن بالشاعر يرسم بكلماته ما عجز عنه الرسم الذي لا يجيده لظروفه البيئية .

إلا أنّه في العصر الحديث وما حمل معه من ثورة معرفية جعلت من الرسم أو التصوير مكانة متميزة إلى جانب النصوص الإبداعية ، مما جعل الروائي أو القاص يتأنى في اختيار لوحته المصاحبة لإبداعه الفني، لتكون في كثير من الأحيان نصا موازيا لمتنه في روايته أو مجموعته القصصية ، لذا كثيرا ما اهتم بها الأدباء بعدها نصا موازيا يتفاعل من خلال مكوناته للتعبير عن دلالات النص . مع لوحة تحمل قصدية المؤلف أو لا تحملها ، ويقف إلى جانبها اسم المؤلف وصورته الشخصية العنوان الرئيس

على ظهر الغلاف ودار النشر وسنة الطباعة . مع اختلاف وضع هذه العلامات في الغلاف وهي ربما تحمل في جميع أشكالها إشارات معينة ((يقول بورس : العالم مفعم بالإشارات ، هذا إذا لم يكن مكونا فقط من الإشارات))[9]

لوحة الرواية صورة امرأة سودانية تحمل صفات بطلة الرواية كما سنلحظ ذلك في دراستنا للشخصية، هذه المرأة تغمض أجفانها أو تنظر إلى الأسفل ، وقربها مسبحة تقترب من اللون البرتقالي وهذا اللون يحمل من الدلالات الكثيرة والمتنوعة فهو يرمز عادة إلى الفعالية والاندفاع الذاتي والرغبة في خوض المنافسة ، وهو رمز للثورة على الاستبداد والفساد وفق نظرة مستقبلية لإحلال الاستقرار تحت مسمى(الثورة البرتقالية)، مما يعني أن اللون البرتقالي يعتبر لونا من الألوان التي تعبر عن الشعور بالكآبة والضجر من الوضع الحالي والذي يؤدي إلى خوض مغامرة (ثورة برتقالية) من اجل الإصلاح والثورة على الظلم، لإحلال البهجة والسرور بين الناس، بما معناه ان اللون البرتقالي عملية اختيارية طوعية، يختارها شعب من الشعوب للتعبير عن مقاومة الاستبداد والظلم دون فرض ذلك اللون بالغصب والإكراه على احد الشعوب والذي يعد نوعا من الاستبداد والعنجهية في فرض سياسة لا ترضاها تلك الشعوب، فحينها لن يكون للون البرتقالي أي معنى إلا الثورة على من فرض هذا اللون البرتقالي، وتحقيق الأمن والسلام [10] وهذه المسبحة مثلت شخصية (كرم الله) حين أهداها للوشيّا على الرغم من مكانتها في قلبه ، فهي ذكرى عزيزة عليه لأنها أول هدية من والده حين أكمل حفظ القران الكريم [11] ، وهي إشارة إلى تمسك الجنوب بالشمال من دون التخلي عنه، والصورة مقسومة إلى جانبين ، جانب مظلم تمازج فيه اللون الأسود مع اللون البني الغامق ، ولون فاتح يوحي بالإشراق أو بدا يوم جديد . وهما لونان يشيران إلى أحداث الرواية بين المستقبل المجهول بعد الانفصال ، والإشراق المتمثل بالوحدة بين طرفي الصراع ، أو ربما النور الذي يحمله اسم (لوشيّا) من ضمن معانيه [12]

رموز الشخصيات:

تعد الشخصية ركناً مهماً من أركان العمل السردي ، وواحدة من عناصره الأساسية . تتجلى عبر أفعالها الإحداث ، وتتضح الأفكار وتتخلق من خلال شبكة علاقاتها حياة خاصة تكوّن مادة هذا العمل ، فهي تمثل((العنصر الوحيد الذي تتقاطع عنده كافة

العناصر الشكلية الأخرى بما فيها الإحداثيات الزمنية والمكانية الضرورية))[13] التي لايستطيع العمل التعبير عن مفهوماته عن مصير الإنسان وتحولات تجاربه إلا من خلالها ، وهي تضطلع بأدوار مؤثرة مؤدية ((مختلف الأفعال التي تترابط وتتكامل في مجرى الحكي))[14] إن تشكل نسيج السرد واتصال حلقاته معقود إلى درجة كبيرة بما يميز شخصياته من نشاط وما ينم عنها من أفعال وحوارات تتباين محمولاتها واختلاف مواقعها ومستوياتها ، معبرة بذلك عن تباين العمل السردي ، وتعدد مستوياته ، وعدم خضوعه لمقولات أو حقائق تعجز معها الشخصية أن تنمي حدثا أو تدير صراعا أو تنشئ حوارا وهي تقيم جدل علاقاتها مع سواها من الشخصيات ، ومع عناصر العمل السردي ، وهذه الشخصيات ليست بالضرورة ((إنسانية أو نموذجا بشريا ، بل قد تدل على فكرة أو رمزا أي أسم في الحياة الاجتماعية أو الفكرية))[15] ((إن الشخصية ، تبعاً لارتباطها بمفهوم الوظيفة ، تتحول إلى رمز ، عندما تحاول التعبير عم مفاهيم ، أو أفكار ، أو رؤى خارج متن النص الأدبي بالاستعانة بالإشارات الواردة فيه . يساعدها في ذلك قدرة تلك الإشارات على خلق وحدات دلالية متعددة التأويل))[16] .

عند تتبعنا لرموز شخصيات الرواية نجدها قد انقسمت إلى مجموعتين الأولى تمثل شمال السودان المسلم (كرم الله ، الشيخ محمد الحسن ، سارة ، براء ، فاطمة، هاشم ، أم عثمان) والأخرى تمثل الجنوب المسيحي (اش ، مبيور ، لوشيّا ، جوانا ، جوزيف ، بيتر ، الجدة) وقد حملت الروائية هاتين المجموعتين وجهات نظر المجتمع السوادني حول الانفصال والوحدة ، إلا أن الروائية استطاعت أن تخرق هاتين المجموعتين بزج عناصر مغايرة للفكر الذي تحمله المجموعة الأولى والثانية ، ففي المجموعة الأولى زجت بشخصية (كرم الله) وهي شخصية تمثل الطبقة المثقفة في المجتمع الشمالي فهو أستاذ جامعي يختلف عن الآخرين ((كرم الله يختلف كثيرا عن صديقه كان هنالك شيء يشده دائما نحو الجنوب)) [17] وهو يمتلك قلباً ابيض دلالة على نقاء السريرة ، فلم تجد لوشيا اختلافا بين عمامة كرم الله البيضاء وبين قلبه الأبيض [18] فحين يكون البطل باسم "كرم الله " ينقلنا إلى أجواء الكرم المطلق الذي يمنحه الله تعالى بمفهومه الواسع ، الكرم المادي والمعنوي فقد مثلت هذه الشخصية الإنسانية مفهومها الواسع منطلقة إلى إبعاد كونية فسيحة تشمل المجتمع السوداني بكل أطيافه .

هذه الطيبة والثقافة جعلته منفتحاً على الآخرين يقبل وجهات النظر التي تتعاكس وتتضارب في مضامينها ، من خلال الحوار الذي يفتحه لطلبته في الجامعة ليستمع لهم ويتقبل منهم الأفكار بكل رحابة صدر ، ليمثل الصوت المتعقل حول الانفصال من عدمه ،فقد اختلفت وجهات النظر بين مؤيد ومعارض ، فالطالب أنس لا يريد الانفصال ، لان صديقه ألفريد من الجنوب ولا يستطيع فراقه ، في حين ألفريد يريد الانفصال لأنه يشعر بكونه من الدرجة الثانية ، أما سارة فتصوت مع الأغلبية كونها تشعر بأنها أجنبية عليها دفع الرسوم ، والحصول على موافقات السلطة للإقامة ، هم يعتقدون يتعرضون للظلم ، إلا أن رؤية دكتور كرم الله مختلفة تماماً ، ((اجترار الماضي سببا لتركيز مرارات على الطرفين نسيانها حتى تستمر الحياة))[19] ولعله يحاول دائما أن يجد فرصة مناسبة للحديث عن هذه الوحدة ، وطرحها من دون تعسف ليوحي بعقلانية النقاش ، وسهولة التوصل إلى رموز ممكن إن تمثل موقف مجتمع مغاير لموقف ساسة هذا البلد ، فحين تعرض الطالب الشمالي (أنس) إلى حادث سيارة لم يكن قربه إلا الطالب (ألفريد) الجنوبي ، وهنا تدخل شخصية (كرم الله) لتوضح ما حصل في حوار مع تلك الشخصيات ((يا أنس عندما صدمتك السيارة من كان أقرب لك ؟

. ألفريد !

. وأنت يا ألفريد لم سارعت بنقل أنس إلى المستشفى ؟

. لأنه صديقي ، ثم إن أي إنسان يحتاج المساعدة وأنا قادر عليها أقدمها دون تردد.

. ألم تفكر أنه شمالي ويضطهدك وأنه لا يستحق المساعدة ؟

ـ لا يا دكتور أنس صديقي ولا علاقة لأي شيء آخر بهذه الصداقة ... إلى أين تريد أن تصل يا دكتور؟

... لا تدعوا مرارات الماضي التي لم تكونوا يوما طرفا فيها تؤثر في قراراتكم ... الوطن أكبر من المرارات))[20] ومن المعروف أن المشهد يعطي ((للقارئ إحساساً بالمشاركة الحارة في الفعل ، إذ انه يسمع عنه معاصراً وقوعه كما يقع بالضبط ، وفي نفس لحظة وقوعه ، لا يفصل بين الفعل وسماعه ، سوى البرهة التي يستغرقها صوت الراوي في قوله ، لذلك يستخدم المشهد للحظات المشحونة ، ويقدم الراوي دائما ذروة سياق من الأفعال وتأزمها في مشهد))[21] فالحوار هنا يجسد رغبة الأطراف في

الحديث عن موضوع واحد ، وان اختلفت الآراء ، ليصل السارد إلى ما يصبو إليه من هدف .

إن الحوار الذي يصوغه السارد بين شخصياته أو يكون طرفاً فيه يساعد على فهم الشخصيات المتحاورة بشكل أكثر وضوحاً، وكشف مكوناتها النفسية والفلسفية والاجتماعية، ففي حياتنا نعرف الكثير عن الشخصية من خلال حوارنا معها، ولا يتيسر ذلك إلا من خلال وضع طابع الشخصية المقابلة في ذهنه ويختار لتعبيراتها أنسب الكلمات [22] لذا كشفت الساردة عن شخصياتها وقلقها واختلاف وجهات نظرها من الوحدة ولانفصال ومن ثم طرح وجهة نظرها بان الوطن أكبر من كل المرارات ولعل هذه النظرة يؤكدها في أكثر من حوار مع كادره الوظيفي في مكتبه ((استدعاء التاريخ لن ينفع بشيء سوى أنه يزيد المرارات ليس من المنطق أن نبقى نجتره حتى يومنا الحاضر ، إن لم نتخلص منه كيف سنرسم غدا؟ هل سيبقى محملا بالمرارات والجراحات ؟ ما ذنب أبنائنا ليتحملوا جراحات لم يكونوا طرفا فيها ولا حتى سببها لها ؟))[23] إن الرواية حاولت تصوير العلاقة بين الشمال والجنوب السوداني من خلال علاقة حب رمزية بين شخصيتين إنسانيتين ، تصاحبها هواجس الحصول على هوية جديدة ، لتصل إلى نتيجة إمكانية الانفصال واقعا ، لكن لن تستطيع أن تفصل علاقات الود بين الناس بأي شكل من الأشكال ، ((ترك الهوية والبحث عن هوية جديدة ليس بالأمر السهل حتى لمن يشرئب لها .. شكوك تنتاب الكثيرين حول صدق ماقيل لهم عن الحياة المنتظرة هناك))[24] .

إن شخصية (كرم الله) وعلى الرغم من حالة الحب التي يعيشها اتجاه (لوشيّا) إلا انه لم يمنعها من الرحيل مع أهلها حين قررت الذهاب إلى مدينة (واو) للمشاركة في الاستفتاء الذي سيجري عن الأنفصال ، كانت تنتظر من (كرم الله) أن يتدخل ليمنعها من السفر ، في رمزية للتعقل والتروي في اتخاذ القرار ، وكأنه يترك فسحة للآخر ليقرر ما يشاء ، على الرغم من أن القرار بيده ، كما اعتادت شخصيته في إدارة حواراته مع طلبته في النصوص المؤطرة سابقاً((". لا تزال أيها الغالي تراوح مكانك تنتظر مني أكثر من خطوة ، لم أغلق الباب بوجهك لكني أخشى أن أفتح البوابة كلها لك وتركتها مواربة

وأنت لا تزال هناك تنتظر مني ليس إشارة فحسب بل أكثر من ذلك "))". كيف يمكن لي التخلي عن حياتي وعن كل قوانيني التي وضعتها بنفسي ؟.

. " ما لذي غيّرك ؟"

". لا شيء قادر على تغيير حبي لك ، لكن ....."

." لكن ماذا ؟ . حتى تمنيت أن أكون أنا !"

.... . أعرف أنك ترحلين ، وأنا عليّ احترام هذا الخيار "

ـ اشش ، لا تكمل ، أنت حبيبي الذي انحني أمامه كالطفل الوديع ، أريد فقط أن أراك كلما اشتقت إليك))[25] إن هذا الصمت وعدم الرغبة في التدخل لاتخاذ قرار في رحيل الحب رحيل المرأة ماهو في حقيقته إلا نسقا مضمرا يمثل موقف الدولة / الشمال من قرار الانفصال للجنوب ، على الرغم من أن القرار بيده كونه يمثل السلطة المركزية ، لكنه لم يمارس فرض السلطة بالقوة أو التحكم بالقرارات ، بل أعطى مجالا واسعا للحرية . وفي إحدى الرسائل التي تركتها لوشيا في الصندوق ، تحمل في طياتها رموزا للخلاف الذي لا مبرر له سوى أن نخطو بخطوات نحو ما نريد من دون تردد ((تحبني ، كل كلامك ورسائلك إشارات واضحة على هذا الحب ،غير أن حذرك يسبق كل خطواتك نحوي ، بيني وبينك لا حدود لا فواصل لا جدران ، بيني وبينك ليس من عتب ، لكنك في كل خطوة تخطوها نحوي تُتكري حذرا فتعاود الاعتذار دوما)) [26]

هذه الشخصية المثقفة التنويرية ذاتها نجد صنوها في المجموعة الأخرى مجموعة الطرف الجنوبي المسيحي أنها (لوشيّا) هذه الشخصية الجنوبية الانتماء الشمالية الولادة ، فقد هربت عائلتها من الجنوب إلى الشمال، بعد مقتل والدها المنتمي للحركة الشعبية67 وقد قتله أبناء جلدتها ((الحرب أخذته مني ، لم يكن سبب موته الشماليون بل أبناء جلدتنا))[27] هذه الشخصية لا تختلف عن شخصية (كرم الله) فحين نعمد إلى التقابل بينهما نلحظ (الثقافة ، التسامح ، النظرة بعيدة المدى ، الاستماع إلى الآخر وتقبل وجهة نظره من دون تعصب، نبذ الماضي بمراراته) وكأن الشخصيتين ترمزان إلى الصوت الذي يدعو إلى الوحدة من دون اللجوء إلى القوة والتعصب .

إن الشعور بالنقص اتجاه الشمال ونظرة الدونية التي تشعر بها الشخصيات الجنوبية نتيجة الازدراء التي تلاقيه بسبب اللون والدين والثقافة هي التي تشجعهم على

الانفصال ، إلا أن لوشيّا تعيش تجربتها الخاصة فقد ولدت وتربت في الشمال ولم تعاني هذه النظرة[28] ولاسيما أنها قد حملت في معاني اسمها ((النور ، وسيجلب لنا نور المستقبل كله))[29].

لقد كانت المجموعة الأولى الشمالية تقابل المجموعة الثانية الجنوبية بطريقة التطابق أحيانا والتناقض أحيانا أخرى ، وعلى وفق الشخصية المتحدثة ، فحين زارت عائلة لوشيا بيت الشيخ حسن قبل عودتها إلى الجنوب ، دار الحديث على مائدة الطعام بين لوشيا وفاطمة :

((يالوشيا مازلنا في وطن واحد وقد نزوركم يوما ما))[30] وفي الوداع بين العائلتين قالت لوشيا ((سأفتقد صوتك عند آذان الفجر يا عمي))[31] وهو حديث يمثل الجانب الوحدوي والمتطابق في الرؤية ، وهذا ما مثلته أيضا (آش) أم (لوشيّا) ففي استقرارها في الشمال كانت تعمل في تطريز الملابس التي ترمز إلى الوحدة من طرف خفي ((بموهبتها وفنها الذي زاوجت فيه بين نكهتي الشمال والجنوب لتنتج أثوابا تحمل بين طياتها نكهة كل أهل السودان))[32] وفي المقابل لهذه الأصوات المعتدلة في نظر الراوي تعالت الأصوات التي تدعو إلى الانفصال ، كما يتضح في شخصية (جوزيف) أخ (لوشيّا) الذي مثل التعلق بالجنوب ((فأنا في النهاية أنتمي إلى هناك ، أهلي وقبيلتي وجذوري ، هناك لوني ليس مختلفا عن الآخرين)) [33]وهذا ما يؤكد الحوار بين عثمان ابن الشيخ حسن وجوزيف الذي كان دائم الغضب ((. لاتخف ياصديقي ، ففي "واو " لن أحتاج الى العصبية مادمت لست أقل منهم هناك

. وهل كنت تشعر بذلك هنا ؟..

قطع الشيخ الحديث الذي خشي أن يتحول إلى شجار لا تحمد عقباه)) [34] أو الحوار الذي دار بين(لوشيّا) و أختها (جوانا) بين البقاء أو الرحيل ، ليمثل صوت الأخت الدعوة إلى الانفصال ، مقابل صوت (لوشيّا) المتعقل ((ماذا لدينا في الجنوب ؟ مستقبل مجهول ينتظرنا حياتنا كلها هنا .

ـ هل ترضين أن تكوني درجة ثانية ؟ هل تقبلين بنظرات التعالي التي نرمق بها بسبب اختلاف أشكالنا ؟. هل تقبلين لنا الذل ؟.

. هذه كلها أمور غير حقيقية وأنت تعلمين ذلك))[35] ولعل بعض هذه الشخصيات المتقاطعة في رؤيتها السياسية للوضع في السودان تكون محملة برؤية ينقصها الوضوح، أو تكون بدوافع شخصية ، كما حدث مع (هاشم) صديق كرم الله الذي قتل أخوه في الجنوب ، فكان حكمه قاصرا مدفوعا بنوازع شخصية ، ولكنه سرعان ما شعر بالندم في تعامله مع (لوشيّا) ،((استوقفته جملتها : ((إن كنت أخطأت في تصرفي فأخبرني " وبدأ يسأل نفسه عن سر هذه المعاملة الجافة لها ، فحتى إن فقد أخوه في الحرب هناك لا ذنب للوشيّا بذلك ابدا))[36] إنها رواية بكل المقاييس تتحدث عن مفهوم (أنسنة) الإنسان والخروج به من الذاتية والإنكفائية ليرى الآخر ويعطيه الفرصة ليعبر عما يحمله، حيث قد يكتشف بأنه أهم من كل ما يملك[37] .

قد حملت هذه الشخصيات المضامين الاجتماعية والدينية ، فعند هروب إعداد كبيرة من الجنوبيين إلى الشمال بسبب الحروب الدائرة بين القسمين فضلا عن الاقتتال بين القبائل ذاتها وعمليات الثأر المتبادل التي لا نهاية لها ، كانت تلك الشخصيات بارقة أمل إلى النور والسلام فما كان من الشخصيات في الشمال إلا إن تفتح أبوابها لأهل الجنوب ويرحبوا بتلك العوائل الهاربة من جحيم القتل ، ولعل التسميات التي أشرت إليها سابقا (لكرم الله) وبياض سريرته كعمامته البيضاء إلا دليلا على ذلك ، وهذا ما لمسته في شخصية العم (محمد الحسن) على الرغم من الاختلاف الديني والعراقي بينهم ((العم محمد الحسن ذلك الشيخ الجليل الذي احتضنهم أول ما وطئت أرجلهم الصغيرة الخرطوم مع والدتهم التي رملتها الحرب في الجنوب)) [38]((وشاء الله أن تلعب أسرة الشيخ محمد الحسن الدور الأكبر في الأخذ بيدها وإعانتها على تربية أبنائها الثلاثة ... كأنه والدهم ، تابع دراستهم وداوم على تقديم النصح لهم والدفاع عنهم أذا اقتضى الأمر))[39] .

وإنَّ ما تقوم به هذه الشخصيات من أعمال يعتمد على التقابل في العرض وكأن هذا التقابل يشي بالوحدة بين القسمين ، فزواج جوانا أخت لوشيا في الجنوب متزامنا مع زواج سارة أخت كرم الله ، وان اختلف الاحتفال في الزواجين بين الرقص والغناء في الجنوب وبين الهدوء وعدم الرقص في الشمال [40] وهذا التزامن في الأحداث كثيرا ما تلجأ له الروائية لتحقق نوع من الوحدة في الأحداث بأسلوب السرد المتناوب فلوشيّا

تستيقظ صباحاً منشرحة النفس ، يقابلها استيقاظ كرم الله فجرا على صوت الآذان ، بل جعلت من هذا الصباح بداية لشخصيات الرواية ، فالشيخ محمد الحسن استيقظ ليحمل الخبز الحار والفول إلى زوجته أم عثمان ، ليدخل لنا حوراً بين الشيخ وزوجته يعبر عن الحلم القائم على استباق الحدث في رغبة لوشيّا بالعودة إلى الشمال ، وهنا يحدث التوارد في الأحداث مرة أخرى حين تطعم لوشيّا بيتر ابن جوزيف الفول كما في بيت الشيخ محمد الحسن [41] .

بل أنَّ وصف الجدتين جدة لوشيا وزوجة الشيخ حسين يعبر عن الوحدة والتشابه ((عناق وأحضان ، جدة تبتسم وأخرى تدمع ، لم تميز لوشيّا أيهما جدتها ، للاثنين بياض يغطي الرأس وشعرات تتنافر من تحت الغطائيين الأفريقي والعربي ، وعلامات تحكي مرارات وذكريات سعيدة ، وقلبين نبضا سوية ساعة خوف ودقا ساعة انفعال ...))[42] إنها العلاقات الإنسانية التي تربط الشعب السوداني من دون تمييز ، هذه الإشارات تحمل مسكوتاً عنه قصدته الروائية .

الرموز الأسطورية :

الأسطورة هي صيغة سردية لرموز نموذجية ، تشكل تلك الرموز رؤيا مترابطة عما يعرف الإنسان ويعتقد به حسب رأي برنيس سلوت ، وهذا يعني بأنها تتضمن حقائق ومعتقدات ، وتتمثل تلك الرموز من قبيل الأم العظيمة بوصفها المنبع لكل حياة [43] .

قد حملت شخصية (لوشيّا) من الرموز التي توحي بأسطورتها ، فكانت اشبه بالمنقذ لشعب كامل ، لقد أرادات أن تعيد التوازن للحياة وهذا التوازن لا يأتي إلا من خلال المغامرة ، فقد وجدت (لوشيّا) نفسها مشدودة للماء / النهر بشكل جلي ، لترتبط بالأسطورة في حالة من التردد ، ولكن هذا التردد لا يعني وضع العوارض اتجاه الهدف الأسمى الذي تطمح إليه ، التضحية من أجل الآخرين ،ولعل رؤيتها لمشهد الأضحية (الثور) التي تقدمها القبائل في مواسم احتفالية يصل فيها إلى التوحد معها إلى درجة الموت والعودة للحياة مرة أخرى ((رفعت لوشيا رأسها محاولة رسم نفس ابتسامة الجميع على وجهها فحالت أشكال الغيوم في كبد السماء دون تلك الرغبة كانت الغيوم السماء ترسم طائرا مهولا يفتح أحد جناحيه يوجه منقاره الضخم نحو الأرض وكأنه يريد أن يلتقطها، أنزلت لوشيّا رأسها لترى الثور وهو يصدر خوارا مرعبا محاولا الفكاك من القيود

التي تكبل أقدامه، نظرت إلى عينيه فرأت عينيها المرتعشتين ،لمحت السكين الضخم بيد أحد الرجال ، فتحسست رقبتها تجمدت الدماء في عروقها ، ... اقترب الرجل ذو السكين من الثور ولوشيّا تحاول أن تبعده عن رقبتها، أمسك الناس بها وهي تحاول الفرار ، لكن قدماها ويداها باتتا مقيدتين ، ... لم تقدر الفكاك ، انتفض الثور، صرخت لوشيّا مرعوبة ،تعالت أصوات النسوة ابتهاجا ، اقترب السكين ، لكن هذه المرة من الوسط تحت القلب ،شعرت بالنصل الحاد يغوص في جسدها ليشطرها نصفين ، تناثرت الدماء، تسمرت لوشيّا تنظر لأوصالها التي سحبها الرجال من داخل جسدها وهي تصرخ طالبة السلام لروحها المذبوحة عن ذلك الثور ، تسلقت نحو السماء من جديد ، لترى ذلك الطائر من جديد بعد أن تنشق روح الثور ، نزلت نحو الأرض ، لترى الرجال يحملون نصف الثور المشطور ويرميانه خارج السور)) [44] وهنا تبدأ الرحلة والارتباط بالماء النهر والأمطار فحين التقت لوشيّا مع بعض الأصدقاء على نهر الجور دار حديثا بينهم يؤكد تسمية النهر ، وكيف أنها شعرت بالألفة اتجاهه منذ الوهلة الأولى ((تأملت لوشيّا نهر الجور أحست بشيء من الألفة نحوه ، ... سألت جوانا بيتر : ما معنى الجور ، هل يعني الظلم ؟

كلا المعنى بعيد جدا، أولا هذا الاسم لقبيلة الجور أو اللوّة ، ويعني بلغتهم البشر القادم من الشمال ، أهل اللوة بشرتهم فاتحة أكثر منا وقريبة من لون الشماليين ، لذلك أطلق الناس قديما عليهم اسم الجور ، إضافة إلى أنه أحد روافد النيل)) [45] ومما يؤكد ذلك . طقوس الماء . مصاحبة المطر لها في رحلتها إلى الجنوب ((خلال هاتين الساعتين لم يتوقف المطر عن الهطول)) [46] ويؤكد استمرار هطول المطر في الرحلة ((زاد هطول الأمطار تلك الليلة ليزيد من شقة الرحلة ويضيف عليها أعباء جديدة)) [47]، التي مثلت حالة استجلاء وعي شخصية (لوشيّا) الذي يرتبط بمعتقدها ، وهي برحلتها نحو المياه منحت الحياة للجميع ، فالتمرد الذي مارسته في حياتها حالة عارضة بسبب من إصرار الشخصية على تأسيس منهج جديد لمجتمع جديد [48] لذلك فكرت لوشيّا بعد أن أرشدتها العرافة للقاء (روح ديت) التي تنتقل في أحدهم عبر الأجيال[49] وبذلك بدأ التفكير في أمرين إما الذهاب إلى الخرطوم أو إلى طقس فك الحداد[50].

إن شخصية (لوشيّا) تحمل بعدا دينياً فحين استوقفتها امرأة . عرافة . قالت لها ((مباركة أنت من روح الإله ديت أراه مرسوما على جبيك . استغربت لوشيّا كلام تلك المرأة وكأنها تعيد على مسمعها كلمات كانت ترددها والدتها قديما .

. ماذا تقولين ؟

. أنت مباركة من روح الإله دينق ديت .

. لا أفهم كلامك .

. استمعي لروحك ستفهمين وتصدقين)) [51]

وهذا ما أكده الوصف الذي تتمتع به لوشيّا ((عينيها اللامعتين ، وقوامها الممشوق، وبشرتها الصقيلة))[52]، فهو صورة مطابقة للصفات التي تحدثت بها المرأة الغريبة عن الإله ديت ، ففي وقت المطر سمع الناس صوت أنثوي ، يصدر من امرأة ممشوقة القوام ، قاسية الجمال ، ضامرة الحشا ، اسمها ألوت (بنت المطر)، التي ولدت ابنا وطلبت منهم ان يقيموا الاحتفال بذبح ثيرانا بيضاء ، لينزل المطر مرة أخرى، وليكون دينق ديت (ابن الإله الكبير) هدية السماء لهم ، لتطير بعدها إلى السماء تاركة ابنها دينق ديت بين الناس يتكلم في مهده [53] .

وهذا الأمر ليس ببعيد عن قصة السيد المسيح وأمه العذراء (ع) ، وما يتعلق بانبعاث السيد المسيح، التي نظر إليها بعض الباحثين على أنها أسطورة دينية [54]. وقد اعتقد روبرتسون سميث ((أن الأساطير القديمة كانت بمثابة الاعتقاد الديني ، لان التراث المقدس كان يتخذ شكلا قصصيا يدور حول الآلهة، ويقوم في الوقت ذاته بتفسير الأفكار الدينية وتوضيحها بشكل ابسط ، بحيث كانت الأسطورة جزءا من بنية الدين وطقوس العبادة ، لكنها لم تتخذ صفة الالتزام ، فخضعت لحرية الإنسان مما جعلها عرضة للتغير من قبل كافة القوى التي يمكنها الاستفادة منها))[55] .

فصورة لوشيا تؤكد هذا تشابه بألوت (بنت المطر) في مساعدة الناس ونقل المياه للنسوة في المعسكر ((ما شدني أليك إضافة إلى الشبه في الأوصاف ، وكأنها عادت من جديد بك. لقد وصلت أنت أيضا مع المطر))[56] ولعل ما يؤكد ارتباطها بهذه الأسطورة الحوار الذي دار بينها وبين(كرم الله) حول جدلية السيد المسيح ((السيد المسيح كلم الناس في المهد لأنه ابن الله .

ـ كلا لوشيّا هذا الكلام غير صحيح . قال كرم الله وهو يضع نظاراته على عينيه ويهم بمغادرة قاعة المدرج .

ـ لماذا يادكتور ؟ . تساءلت لوشيا بنظرات كلها تحد على أن ما تؤمن به هو الصحيح ولم تسمح له بتغيير قناعاتها .

-لان قرآننا يقول : أن الله هو الواحد ، وليس له رفيقة أو ابن .

_ وانجيلنا يقول : أن يسوع ابن الله انزل من السماء في بطن العذراء وتكلم مع الناس وهو في المهد .

_ نعم يكلم الناس في المهد صبيا، وكذلك قال ربنا ونفخنا فيه من روحنا، ولم يقل أنه ابني)) [57]

هذه الطقوس السحرية والرحلة للبحث عن المفقود والتضحية من أجل الآخرين أضفت كثيرا من الغرائبية على شخصيتها فقد ((كان جسد لوشيّا يعبر الجسر بينما أسرعت روحها نحو بيت أتيم تترجى روح ديت أن تتمهل في المسير نحو المقبرة ، تطلب منها أن تنتظر ذلك الكائن القادم من بين أشجار المانجو ، تنبه الرجل إلى نسمات هواء عليلة تمر بقربه تحمل رائحة الأبنوس ارتفعت من جديد أصوات الطبول معلنة لحظة الذهاب إلى المقبرة)) [58] ومع طقوس طرد روح الشريرة من الميت ومع كل خطوة تشعر لوشيّا بان خطواتها تقودها نحو الشمال ، وهي تتحسس المفتاح الذي تركته في الشمال وما أن بدا الرجل الذي تجسدت فيه روح ديت حتى أخذت لوشيا تردد خلفه ((رحلتَ عنا ، إلى مكان أحلى من هنا . "إلى مكان أحلى من هنا ؟"

. رحلت إلى حياة نتوق إليها كلنا .

"إلى حياة نتوق إليها كلنا ؟"

"تلتقي فيها بأحبابك ؟"

. الذين عز عليك لقاؤهم في هذه الدنيا .

((هناك ، ستكون لي كما أكون لك، هناك، ستأخذ الخطوة التي انتظرتها منك)) [59].

وهنا تتمنى لوشيّا في منولوج داخلي تتمنى ان تلتقي بكرم الله في الآخر ، بعد أن عز عليها اللقاء في الدنيا [60] .

ثم تقدمت لوشيا إلى الرجل الذي يحمل روح ديت وطلبت منه أن يعيدها إلى (واو)((أعدني إلى هناك .

. لقد تعبنا حتى أوصلناكم إلى هنا ، وأنت تريدين العودة إلى هناك ؟

. تعبت من الانتظار والإبحار عكس النيل .

. وهل ترين في العدة ، راحة ؟.

. وهل ترى لروحي المعذبة غير ذلك ؟

امتعض الرجل أمام إصرار لوشيا على العودة ، أشاح بوجهه عنها في إشارة لها حتى تنسحب وتنهي هذه المحادثة ، استجابت لهذه الرغبة وعادت أدراجها تجر خيبتها))[61].

وبعد أن حاول الرجل الرحيل نتيجة لملاحقة نظرات لوشيّا ((حاول التوجه نحو الباب الخارجي غير أن قدميه قادتاه لمسار لوشيّا حيث تقف عند شجرة الأبنوس ،لم يستطع أن يفهم سر الشبه الشديد بين الاثنين ، الرائحة أم اللون أم ذلك اللمعان الخفي الذي ينتظر الصقل ، اقترب منها وهمس في أذنها :

إذا كنت مؤمنة بقناعاتك ، تأكدي أنك ستحققيها .

. كيف ؟ سألته واللهفة بادية عليها .

أذهبي إلى النهر ولن تعدمي الوسيلة ، ستعرفين الطريق وحدك.

نزلت كلمات الرجل على لوشيّا كتمية طال انتظارها ، تهللت أساريرها وقالت في نفسه ((عندما أجهز سأعد العدة للرحيل))[62] ،وهنا تبدأ رحلة المياه فقد أكد المفكر (غاستون باشلار) بأنَّ ((قدر الإنسان البشري، في عمقه هو الماء الجاري، الماء هو حقا العنصر الانتقالي، إنه التحول الكائني... والكائن الذي قدره الماء كائن دائخ، فهو يموت كل لحظة، ومن دون توقف، يسيل شيء ما من مادته. .. الماء يجري كل يوم، الماء يهطل كل يوم، وعلى الدوام ينتهي بموته الأفقي...موت الماء أكثر حلمية من موت التراب، لا نهائي هو عذاب الماء)) [63] .

وفي الديانة المسيحية نجد في الماء عنصرا مهما في إقامتها لمراسيم التعميد ولا يستعاض عنه. كما أن السيد المسيح (ع) تعمد بالماء الجاري (نهر الأردن) على يد النبي يحيى يوحنا (ع) فكان لهذا التعميد أثره الخاص والمهم بلاهوت المسيح والكنيسة

من بعده. فيدخل الماء في عملية التعميد الكنسي وصلوات القربان المقدس عند المسيحيين كرمز للتطهير من الذنوب. وهدفه الرئيس هو التطهير واكتساب منحة الحياة والاتصال بالقوى الحياتية ، وان عملية الغطس وقطع النفس عند انغمار المرء تحت الماء أثناء مراسيم الصباغة المندائية (مصبتا – التعميد) ليست إلّا دلالة قيمة وواضحة ترشدنا إلى عملية الخلق الأولى للإنسان، فهي تعني الموت والاندحار ومن ثم الخروج من على سطح المياه، دلالة الخلق والولادة والازدهار[64] .

ففي صباح جديد توجهت لوشيا بعد أن ((ربطت وشاحها الإفريقي فوق رأسها وخرجت مسرعة تتأبط حذاءها ، وتحمل في يديها مسبحة الصندل)) [65] لتبدأ الرحلة ((كانت تمشي وكأنها تطير ، أو أن يدا حنونة تحملها برفق نحو نهر الجور حيث منتهاه النيل ، هناك عند ذلك الجانب اهتزت أغصان المانجو ، وبدأ دبيب يسري في الأرض تحمله الريح نحو السماء ... في الخرطوم كانت أشجار اللبخ تنصت لهمس الريح وهي تستعد لاستقبال الغائب ، تُهادي النيل فرحا ، ذلك النهر الذي لم يكل يوما من الجريان نحو الشمال وقد بدا كم يستعد لملئ رئتيه من هوىً قادم من هناك))[66] وهناك في الخرطوم تكون صورة أخرى لكرم الله الذي استيقظ صباحا على صوت الآذان ، وبعد أن صلى الفجر اتجه نحو شارع النيل ، لا يدري لم لكنه أحس أن موعدا غاليا طال انتظاره يوشك أن يتحقق [67] .

((نزلت لوشيّا عند حافة النهر ، لم تخف من تياراته القوية ، كانت تريد أن تتوحد مع النهر والتراب والهواء ، اليوم تأكدت أنها جزء من نداء هذه الطبيعة التي تجري من الجنوب نحو الشمال...عند حافة النهر وبصوت يشبه الحنين ، أنشدت لوشيّا والطبيعة تنصت))[68] .

انطلق أهلها للبحث عنها نحو النهر ، ولكن الجدة كانت على يقين بعدم عودتها ، فهي على وشك الرحيل ((وهنا بدأت ترنيمات لوشيّا تنساب في أذن الجدة))[69] .

صوت لوشيا((. إن كان حنينك يوازي حنيني ،

إن كان شوقك بحجم شوقي ،

أعدني حيث تحملني الأرض وتستنشقني الريح ،

أعدني إلى دفء الذكريات ،

إلى طين النيل ، وشجر اللبخ ،

الأبنوسة فيّ ، يضنيها البعد

يمزعها الفراق ... الصمت .

...أعدني إلى النيل

عند حافة النهر بدأت الريح تشتد وتدفع لوشيّا بقوة ، وهي تقبض بيدها على مسبحة كرم الله... وما كانت تنتهي كلماتها ، حتى أحست بقوة هائلة تفتح يديها وترفعها نحو الأعلى ، لم تعد ترى جسدها الأسمر، لم تعد تسمع صوتها ، لكنها كانت تعرف أنها لا تزال تقبض على مسبحة كرم الله)) (70) هذا الحدث والطقس يقابله شعور كرم الله بأن شيئا ما يحدث وحين أراد العودة ((سمع نداء من النهر ، من فوره صعد الجسر متوجها عن آخر جزيرة توتي حيث البيت والنيلين ... ملأ صدره بهواء النيل المنعش ، وبدأ أنه يريد المزيد منه ، في ذلك الصباح كانت موجات النيل الأزرق تضرب بكل عنفوان قطرات النيل الأبيض المتهادي ، وبدأ النيلان يتساقيان الهوى ، ولهفة التوحد بادية عليهما ، وشوق لقاء طال انتظاره . أنصت كرم الله لحوار النهرين اللذين يوشكان على التوحد عند نهاية الجزيرة ، فسمع صوتا لطالما تمناه ... تنفس كرم الله الهواء مرة أخرى ليشم رائحة هام بها حبا ، حتى راح نور الفجر يشق السكون ، فصرخ : لوشيـّا)) (71) لتكون النهاية عبر طقوس الماء ، وعبر تقديم الأضاحي و((تقديم القربان البشري للآلهة عادة من العادات القديمة التي فرضها الحس الديني لدى بعض الشعوب القديمة وقد اختفت عند بعضها واستمرت عند أخرى وذلك لأسباب التطور وانتقال المجتمعات من العصور الحجرية إلى عصور النهضة والانفتاح، كما أنَّ فكرة تقديم القرابين لإله البحر عادة متأصلة في حياة التدين التي تتصف بها الشعوب الإفريقية، ... و القبائل النيلية في جنوب السودان))(72) كذلك كان الفراعنة ومنذ سنة 3200 قبل الميلاد، يقدمون للنيل أجمل عرائسهن العذراوات من اجل جلب المطر وبالتالي فيض النيل بالمياه والخيرات، فكانوا يزينون العرائس ويجملوهن ويوهمونهن بحفل زفاف حقيقي، لينتهي بهن المطاف في قعر النيل قربانا للآلهة كي تجعلها سنة خير ومطر.

ونلحظ الجانب الأسطوري في الصناديق الثلاثة التي تمتلكها عائلة (لوشيّا) ، الصندوق الأول تركته مع (كرم الله) مع مجموعة من الرسائل ((أحتضن كرم الله

الصندوق الخشبي العتيق داخل ذلك البيت الصغير و كأنه يحتضن طفله الذي أبصر النور لأول مرة)) [73] والذي طلبت منه عدم فتحه إلا لمرة واحدة لأنه مصنوع من خشب شجرة خجولة لا تحتمل أن تُعرف أسرارها ، و في بيت الجدة شاهدت لوشيّا يشبه الذي تركته عند كرم الله وعرفت بعدها أن أباها قد صنع تلك الصناديق الثلاثة وقدمها هدية إلى أمها وحينها دار الحوار بينها وبين الجدة ((لماذا لم تجلبوه معكم ؟

. تركته هناك .

. أين في البيت ؟

. كلا ، عند بعض الأصدقاء ؟

. هذا الصندوق عزيز ، إنه إرث أسرتك ، كيف تفرطين فيه ؟.

. تركته عند شخص عزيز .

. انتفضت الجدة وهي تسمع كلام لوشيّا ، وتساءلت .

. هل هو من الخرطوم ؟

. نعم .

. لا مفر من المكتوب .

. ماذا تقولين ياجدتي؟))[74].

ثم تحكي لنا قصة العرافة إثناء رؤيتها للصناديق الثلاثة وكيف قالت إنَّ هذه الصناديق مصنوعة من خشب شجرة منحوسة ، وخجولة . وتجلب الغم والفراق حتى لو بعد ثلاثين سنة[75] وقد أثار هذا الحديث ذكريات الجدة وكلام لوشيا عن الصندوق الثالث ، اذ أن((كاهنا في الكنيسة أكد لها النبوءة عندما قال : إن الجيل الثاني سيناله هم التوجع والعودة مع النيل ، إلى مكان الصندوق))[76] وهو ما آل إليه مصير بطلة الرواية (لوشيّا).

رمزية الأشجار:

إن من يتتبع النص يجده زاخراً بألفاظ الطبيعة بالنباتات والأشجار والمياه ، ((والطبيعة كانت منذ القدم نبعاً فياضاً للرموز فقد احتضنت منذ البدء الفعل الإنساني ، تثيره وتنميه وتحاوره بسحرها وجلالها الغامض الطري ، وكانت مبعثاً لحنينه وإحساسه بالجمال ، كانت بعبارة أخرى رمزاً لتشوقه إلى المطلق والسامي والبعيد)) [77].

ولعل أكثر الأشجار التي أشارت إليها الرواية شجرة الأبنوس ، الذي تفوح منه رائحة طيبة ، تذكرها حين تركت لها الرسائل ،((تلفت في البيت الصغير يحاول أن يسال الجدران أو الأثاث البسيط عن سر رائحة الأبنوس التي تعبق بالمكان)) [78] وهي رائحة لوشيا((تضعين عطرا جميلا يا لوشيّا .

– أنا لا أضع عطرا ، لكن أمي كانت تقول : إن رائحتي تذكرها بشجر الأبنوس ، حيث التقت بوالدي)) [79]. هذه الرئحة لها عمق زمني حين نقش والدها صورة أمها على شجرة مانجو وشجرة أبنوسة وهي تحمل طفلا وتمسك بيديها اثنين ، قال لها إنهم أبناؤه حين يتزوجا [80] فهي رائحة مميزة لعائلتها ((أطلت اش بثوبها الأزرق وغطاء الرأس الأفريقي مربوط على جبينها ،تتهادى مع نسمات الهواء التي حملت معها عطر أشجار الأبنوس .. عرف مبيور الرائحة)) [81] هذه الرائحة لا تختلف عن رائحة لوشيّا حين قدمت استقالتها عند السفر رائحة

((قامتها الممشوقة تفوح منها الأبنوس ، ترتدي ثوبا أفريقيا لونه أصفر ، مصنوع من الحرير ، عليه نقوش وتطريزات يدوية بالغة الدقة)) [82] .

ومن المعروف أن لب خشب الأبنوس الخشب الجوفي غامق اللون إما خشب النسغ فانه ضارب إلى الرمادي أو أبيض ضارب إلى الوردي ولب خشب الأبنوس أعلاه صلب ناعم الصقل وسهل النحت يتحمل الأبنوس كذلك التلميع المكثف ويكون لب الخشب بعض أنواع الأبنوس بنيا قاتما بدلا من الأسود وقد يكون بخطوط ذات ألوان مختلفة كالبني الخفيف أو الأصفر أو الأحمر. وقد يكون الصمغ الصلب الموجود في انسجة لب الخشب سببا في هشاشة الابنوس وقابليته للكسر وهذا يجعله سهل التشكيل والتصنيع والنحت .

عادة يتشكّل الأبنوس من الأشجار القديمة التي نمت قبل آلاف السنين واقتلعتها عاصفة أو رعد وغيرهما من الظواهر الطبيعية العنيفة وسقطت على الأرض حتى دفنت تحتها رويدا رويدا وتغيّرت أليافها بمرور الزمن، الأمر الذي جعل لها أشكال متميزة وعروق جميلة وألوان عجيبة مثل الأسود، والرمادي، والبني، والأحمر، حتى الأصفر الذهبي. ويطلق أبناء الشعب الصيني على الأبنوس لقب (الخشب السحري).

إن لون هذا الخشب أسود صُلْب يمكن صقله لدرجة اللمعان المعدني ، وارتبط بطقوس دينية أكدته الرواية حين تعرضت إلى وصف الكنيسة ونجمة داود السداسية في الكنيسة تصنع من خشب الأبنوس[83] ،فالشجر هنا جاء يحمل معنى وجود الإنسان ، وتولده تولدا ذاتيا بالنشوء الطبيعي المرتجل ، وأن أصله طينة تخمرت في بطن الأرض وامتلأت بجسم لطيف هوائي تعلق به الروح الذي هو من أمر الله [84] .

فالشجرة رمز الترابط والاستمرارية، ففي المجتمع الزراعي تعتبر الشجرة بمثابة النبتة التي تتجذر في الأرض أكثر من أي نبتة أخرى..[85] والمعروف أن شجرة الأبنوس ذات الخشب الأسود تقوم بعلاقة تكاملية مع النمل الأبيض ، إذ تنمو عادة فوق تلال النمل الأبيض ، وتوفر جذورها الحماية للنمل الأبيض بينما يوفر النمل الأبيض التهوية والرطوبة لجذور الشجرة ، من دون أن يقوم النمل بأكل خشب الشجرة . وهي علاقة تكاملية بين الشمال والجنوب في السودان . لقد حملت بطلة الرواية (لوشيّا) صفات هذه الشجرة التي تجمع بين الأنوثة والصرامة والقوة في تحقيق أهدافها التي سعت إليها من دون انكسار وكلل، كما أن هذه الشجرة تعطي الرائحة الطيبة فضلا عن سهولة تشكيلها وقوتها.

رمزية المكان :

إن الأمكنة التي تصورها الرواية وأن كانت أمكنة واقعية إلا أنها أمكنة فنية ، لأن الروائي يقدم لنا صوراً تمتزج فيها الجوانب المادية بالنفسية ، فهو محكم بما يحمل من مشاعر اتجاهه ، فالمكان يرتبط مع الشخصيات في علاقات متعددة كالتنافر أو الانتماء أو الحياد [86] وقد حاولت الروائية في رسم أمكنتها لتوحي جميعها بالوحدة فاللقاء الأول بين الشخصيتين جاء في جزيرة (توتي) التي تقع عند ملتقى النيلين ، التي تعد تمثل منارة لنشر العلم الديني في السودان ((يقع المنزل عند نهاية مزرعة للمناجو والليمون في الجزء الجنوبي حيث يلتقي النيلان الأبيض و الأزرق في عناق حميم عند منطقة مثلثة ، عنفوان هادر وانسياب دافئ ، ليتوحدا في نيل خالد يروي للأجيال حكايا عشقه لدائم للأرض والإنسان))[87] ومنطقة الفتيحاب ((منطقة مكتظة بالسكان فيها خليط من كل فئات السودانيين ، جنوبا وشمالا ، يعيشون في حال انصهار ، لا تشي بأي نوع من العزلة أو التخندق بسبب اللون أو العرق))[88] و((كلما اشتدت الحرب توغل المدنيون

شمالا وهم يرون فيه ملاذهم الآمن حتى وإن قياداتهم في حرب معه))[89] لتوحي بأن هذا الانقسام والاقتتال لا علاقة للشعب فيه ((لم يجد أهل اش صعوبة في التأقلم مع الناس في ذلك الحي برغم اختلاف الديانة والعرق)) .

ويلعب الوصف دورا في وصف مدينة واو والوحدة ((واو مدينة تغفو على سرير أخضر تعبق منه رائحة النبتة الطرية لحظة كسرها ، من دون أنين تصرخ بحسنها ، تحتضن مئذنة بيضاء على ربوة تل فوق المدينة ، وناقوسا بنيا على تلة تحيطها الجنائن من كل صوب ، وأرض تحن دوما لأقدام مشت عليها برفق تغني تراتيل الأبنوس ... تشيع في رحابها صلوات تهفو لها النفوس العطشى للسلام ، ونهر يشق أرضها برضاها ، وهو يحث السير نحو هناك ليصب في النيل الذي يجري نحو الشمال بعكس كل أنهار الدنيا))[91] فهذا الوصف يحمل من الدلالات المادية والنفسية يشعر بالألفة اتجاه المكان ، فاللون الأخضر وما يحمل من دلالات السلام والمحبة جمع دينياً بين السكان بشكل متساو لا فرق بين الإسلام والمسيحية ، من خلال وصف يوحي بالسكون والهدوء والسلام . فالمكان هنا لا يقصد منه الوصف الصامت بل تفاعله مع الشخصية والحدث .

وصف واو في شكل البشرة بما يوحي بتشابه بين أبناء البلد الواحد((استغربت لوشيا من السحنات والملامح نفسها ملامح الناس في الخرطوم ، تنبهت الجدة للوشيا ، فردت عليها بابتسامة تخبرها أن "واو" لا تختلف عن الخرطوم بطبيعة علاقات الناس وتمازجهم فيما بينهم))[92] فالمكان هنا يعطي كثافات إيحائية تمنح المكان بعدا رمزياً إلى شيء آخر ، وهو وحدة السكان لتصبح شاهداً على وحدة البلد .

حتى الجامعة وان كانت الإشارة إليها بسيطة مقتضبة إلا أنها تحمل طابع الوحدة بأبوابها المتناظرة التي تمثل مدخليها ، جامعة كرم الله اسمها النيلين وهو ذات بوابتين تفتح من شمال وجنوب [93] .

إضاءة

تجاوزت الروائية السرد التاريخي التقليدي للأحدث ، ولعل الحياة التي عاشتها الروائية متنقلة بين البلدان العربية عامة والسودان خاصة ساعدتها على ملامسة الحياة بكل تفاصيلها الواقعية ، فعمدت إلى وصف العادات والتقاليد والأحداث التاريخية بشكل دقيق وبأسلوب لغوي يضم في أهابه شعرية وعاطفة واضحة تجعل المتلقي يشارك

الشخصيات أفراحها وأحزانها فمنذ العنوان" إبحار عكس النيل " تعمل الرمزية على بيان مقاصد الساردة من خلال الإيحاء بعيدا عن التصريح، لقد بينت الرواية كيفية تمسك بعض شخصياتها بالوحدة بين شطري السودان على الرغم من الأصوات المتعالية للانفصال، أن رواية (إبحار عكس النيل) مفعمة بالصور، زاخرة بالألوان ، موشية بالحركة والخيال ، عابرة للحدود.

الهوامش :

(1) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، محمد فتوح أحمد، دار المعارف، القاهرة ، طبعة 1984: 136 – 138 .

(2) العنوان في الشعر العراقي المعاصر، ضياء الشامري، أنماطه ووظائفه، مجلة جامعة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، م (9)،ع (2)،2010: 13.

(3) سيميوطيقيا والعنونة، د–جميل حمداوي،مجلة عالم الفكر،م(25)،ع(3)،يناير مارس 1997: 96.

(4) عتبات جيرار جينت، من النص إلى المناص، عبد الحق بلعابد، منشورات الاختلاف، ط1، **2008**: 76.

(5) العنوان في الثقافة العربية , التشكيل ومسالك التأويل , محمد بازي , ط1, منشورات الاختلاف, الدار البيضاء , 2012:7.

(6) إبحار عكس النيل ، فائزة العزي ،دار التكوين للنشر ، دمشق ، 2011: 121.

(7) الحيوان، الجاحظ ، شرح وتحقيق: عبد السلام محمد هارون، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ط2، 1965: 128/3.

(8) العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط4 ، 1972: 1/ 286

(11)ـ أسس السيميائية، دانيال تشاندلر تر: طلال وهبه ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008 ص: 374.

(10). ينظر: اللون البرتقالي مابين القضايا الدولية والقضية الفلسطينية ، مأمون شحادة ، شبكة المعلومات الدولية (الانترنت). http://www.malaf.info

(11) ينظر: إبحار عكس النيل :63. 64

(12) ينظر: المصدر نفسه:83

(13) بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي – بيروت – الدار البيضاء، 1990 :20.

(14) قال الراوي البنية الحكائية في السيرة الشعبية، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء، 1997 :78.

(15) ضحك كالبكاء، إدريس الناقوري، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد،1986 :194.

(16) الرمز في الخطاب الأدبي ، حسن كريم عاتي ، دار الروسم ، بغداد، 2015: 20 .

(17) إبحار عكس النيل : 23.

(18)ينظر :المصدر نفسه : 147.

(19) المصدر نفسه: 165. وينظر : 168.

(20) المصدر نفسه : 188.187 .

(21) بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، سيزا قاسم،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1984: 65.

(22) ينظر: الحوار في القصة والمسرحية والإذاعة والتلفزيون، طه عبد الفتاح، دار الزيني للطباعة – مصر، 1975: 15.

(23) إبحار عكس النيل : 88.

(24) المصدر نفسه:114.

(25) المصدر نفسه: 48.47

(26) المصدر نفسه : 61 .

(27) المصدر نفسه:. 130.

(28) .ينظر: المصدر نفسه :203.

(29) المصدر نفسه:70.

(30) المصدر نفسه :37.

(31) المصدر نفسه :38.

(32) المصدر نفسه :26.

(33) المصدر نفسه :28.

(34) المصدر نفسه :39.

(35)المصدر نفسه : 33.

(36) المصدر نفسه :116.

(37) (شبكة المعلومات الدولية)

(38) إبحار عكس النيل :26 .

(39) المصدر نفسه : 26 .

(40) ينظر: المصدر نفسه: 229. 2330.

(41) ينظر: المصدر نفسه : 237. 239 .

(42) المصدر نفسه: 241 .

(43) ينظر: الأسطورة والحداثة: بول ب .ديكسون، تر : خليل كلفت، المجلس الأعلى للثقافة، 1998: 27.

(44) إبحار عكس النيل :194 .

(45) المصدر نفسه : 201.

(46) المصدر نفسه : 81.

(47)المصدر نفسه : 113.

(48) ينظر : دلالة النهر في النص ، جاسم عاصي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، الموسوعة الصغيرة ،2004: 79

(49) ينظر : إبحار عكس النيل :211 و212 .

(50) المصدر نفسه : 215.

(51) المصدر نفسه:207.

(52) المصدر نفسه : 208.

(53) ينظر : المصدر نفسه : 208. 209 .

(54) ينظر : فلسفة الأسطورة ، اليكسي لويسف ، تر : د. منذر بدر ، دار الحوار للنشر ، 2000:175.

(55) الأسطورة والتراث : سيد القمني ،المركز المصري لبحوث الحضارة ، القاهرة ، ط3 ، 1999:29.

(56) إبحار عكس النيل : 211.

(57) المصدر نفسه : 209. 210

(58)المصدر نفسه : 218.219.

(59) المصدر نفسه : 220.

(60) ينظر : المصدر نفسه : 220.

(61) المصدر نفسه : 222،221.

(62) المصدر نفسه : 223 .

(63) الماء والأحلام ،غاستون باشلار. ترجمة علي نجيب إبراهيم. المنظمة العربية للترجمة. بيروت. ديسمبر. 2007. :20.

(64) ينظر (أسطورة الماء في الأديان) الترميذا علاء النشمي www.mandaeanunion.org2013 شبكة المعلومات الدولية(الانتر نت)

(65) إبحار عكس النيل : 217.

(66) المصدر نفسه : 253.

(67) ينظر: المصدر نفسه : 254 .

(68) المصدر نفسه :254.

(69) المصدر نفسه : 255.

(70) المصدر نفسه : 258،256 .

(71) المصدر نفسه : 258، 159 .

(72) موسوعة ويكيبيديا .

(73) إبحار عكس النيل : 8.وينظر :12.

(74)المصدر نفسه : 232.

(75) ينظر: المصدر نفسه : 235 .

(76) المصدر نفسه : 236.

(77) الشاعر العربي الحديث / رموزه وأساطيره الشخصية، د. علي جعفر العلاق ، مجلة الآداب ، بيروت ، نوفمبر 1988 : 6 .

(78) أبحار عكس النيل : 12،79.

(79) المصدر نفسه : 64، 65.

(80) ينظر: المصدر نفسه : 135.

(81) المصدر نفسه :134.

(82) المصدر نفسه : 162.

(83) ينظر : المصدر نفسه : 227.

(84) ينظر : رمز الشجرة في الأسطورة الأمازيغية ، الحسين أيت باحسين ، الحوار المتمدن ، العدد 3669 في 2012/3/16

(85) ينظر المصدر نفسه .

(86) ينظر بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي : 53 ومابعدها.

(87) إبحار عكس النيل : 46.

(88)المصدر نفسه :25.

(89) المصدر نفسه :67.

(90) المصدر نفسه : 139.

(91) المصدر نفسه :149.

(92) المصدر نفسه : 155. 156.

(93) ينظر : المصدر نفسه:165

المصادر :

. إبحار عكس النيل ، فائزة العزي، دار التكوين للنشر، دمشق ،2011.

. أسس السيميائية ، دانيال تشاندلر ، تر : د. طلال وهبه ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، 2008 .

ـ أسطورة الماء في الأديان، الترميذا علاء النشمي 2013www.mandaeanunion.org شبكة المعلومات الدولية(الانترنت)

. الأسطورة والتراث : سيد القمني ،المركز المصري لبحوث الحضارة ، القاهرة ، ط3 ، 1999.

. الأسطورة والحداثة : بول ب .ديكسون ، تر : خليل كلفت ، المجلس الأعلى للثقافة ، 1998.

ـ بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ ، سيزا قاسم،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1984 .

. بنية الشكل الروائي(الفضاء0الزمن0الشخصية) حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي – بيروت – الدار البيضاء، 1990.

. بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، د0حميد لحمداني،المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع – الدار البيضاء 2000

ـ الحوار في القصة والمسرحية والإذاعة والتلفزيون، طه عبد الفتاح،دار الزيني للطباعة – مصر،1975.

. الحيوان، الجاحظ ، شرح وتحقيق: عبد السلام محمد هارون، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ط2، 1965.

. دلالة النهر في النص ، جاسم عاصي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 2004.

ـ رمـز الشـجرة فـي الأسـطورة الأمازيغيـة ، الحسـين أيـت باحسـين ، الحـوار المتمـدن ، العـدد 3669في 2012/3/16

. الرمز في الخطاب الأدبي ، حسن كريم عاتي ، دار الروسم ، بغداد، 2015.

. الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، د. محمد فتوح أحمد ، دار المعارف ، ا القاهرة ، طبعة . 1984

. سيميوطيقيا والعنونة، د–جميل حمداوي،مجلة عالم الفكر، م(25)، ع(3)،يناير مارس 1997

. الشاعر العربي الحديث، رموزه وأساطيره الشخصية، علي جعفر العلاق، مجلة الآداب، بيروت، نوفمبر 1988 .

. ضحك كالبكاء، إدريس الناقوري، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد،1986 .

ـ عتبات جيرار جينت، من النص الى المناص، عبد الحق بلعابد، منشورات الاختلاف، ط1، **.2008**

ـ العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط4 ، 1972 .

. العنوان في الثقافة العربية , التشكيل ومسالك التأويل , محمد بازي , ط1, منشورات الاختلاف , الدار البيضاء د.ت.

ـ العنوان في الشعر العراقي المعاصر، ضياء الثامري، أنماطه ووظائفه، مجلة جامعة القادسية في الآداب والعلوم التربوية،م (9)،ع (2)،2010.

. فلسفة الأسطورة ، اليكسي لويسف ، تر : د. منذر بدر ، دار الحوار للنشر ، 2000.

. قال الراوي البنية الحكائية في السيرة الشعبية، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء، 1997.

– اللون البرتقالي مابين القضايا الدولية والقضية الفلسطينية ، مأمون شحادة ، شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) http://www.malaf.info

– المـاء والأحـلام. غاسـتون باشـلار. ترجمـة علـي نجيـب إبـراهيم. المنظمـة العربيـة للترجمـة. بيروت. ديسمبر. 2007.